فكرة المجتمع المفتوح عند كارل بوبر

لخضر مذبوح(*)

أولا : كارل بوبر وخطاب الحداثة :

لما كانت فكره الحداثة وثيقة الصلة بالتاريخ، وبتاريخ الأفكار التي تحدده وتهيمن عليه، يجدر بنا أولا حتى نبرز بوضوح حداثية أفكار بوبر العلمية والسياسية أن نتعرض بشيء من الإيجاز المفيد لمكانة التاريخ في قلب المواجهة مابين نمطين من الفلسفات : فلسفة تهيمن خصوصا، على البلدان الأنجلوسكسونية، والأخرى تهيمن على القارة أو ما يصطلح على تسميتهما المدرسة الأنجلوسكسونية والمدرسة القارية.

فالفلسفة الانجلوسكسونية، فلسفة عقلانية، نجد فيها الفكر العلمي والتقني، هما في نفس الوقت الموضوع الرئيسي للدراسة، وأفضل الأمثلة تتبع، والتاريخ في هذه الفلسفة علم هامشي فهو في حدود الآداب.(١)

أما الفلسفة الثانية فهي على العكس وعلى الخصوص الفرنسية، فالتاريخ يمنح بديلا للفلاسفة الذين يريدون أن يبقوا مستقلين عن العمل الذي تنجزه العلوم الدقيقة.

ونحن نعلم أن الفلسفة على سبيل المثال في فرنسا هي في جزء منها تاريخ للفلسفة، الإبستمولوجيا تاريخ للعلوم، وأن نجوم الأنتلجنسيا الفرنسية اليوم هم غالبا، اختصاصيون في الوصف التاريخي أو الأنثروبولوجي وزيادة على هذا فإن عددا معتبرا من مقالات الفلسفة العامة التي تصدر اليوم، تهدف سواء إلى التنبؤ بمستقبل الإنسانية، مثلما حدث في الفترة التي ازدهرت فيها الماركسية، قصد استخلاص دلالة حداثتنا وأزمتها الحالية(٢).

(*). قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة منتوري قسنطينة.

(1).voir : Michel Meyer :La philosophie AnglosaxonePUF , 1er edition , 1994

(2).voir : Karl Popper , Et la Science d'aujourdhui , colloque de Cerisy , Aubier , 1989.

obeikandl.com

إن وجود هذا التعارض بين هذين النمطين من التفكير الفلسفي، يستطيع أن يبرر فحص انتقادات بوير المفصلة – الذي يعتبر من أشد المدافعين عن النمط الأول – الموجهة لما يسمى بالتاريخانية historicisme ، التي تحتل مناقشتها ونقدها جزءا هاما في فلسفته كما سنرى.

يقول بوبر: " إنني آخر بقايا التنوير، أي أنني عقلاني أومن بالحقيقة، وأومن بالعقل البشري (...) وحين أقول إنني آخر بقايا التنوير أقصد أن رجل التنوير يتحدث بأبسط ما يستطيع من استخدام اللغة، حديثا يتسم بالوضوح والبساطة، والقوة مثل أستاذنا العظيم برتراند راسل، لأن الهدف من بساطة اللغة هو التنوير لا التسلط " (١).

بهذه العبارات يوجز بوبر خطابه الحداثي الذي طوّره في مسعى فلسفي سمّاه " العقلانية النقدية " التي رآها استكمالا وتطويرا لخطاب الأنوار، خاصة في صيغته الإنسانية المؤسسة على العقل والإيمان بالإنسان، وهي فلسفة تتسم بنظرة تفاؤلية مؤسسة على فكرة التقدم والتطور الخلاق، سعيا لتحقيق حرية الإنسان وانعتاقه ورفاهيته وإعداده لتقبل مشاكل الحياة ومواجهتها مواجهة عقلانية واقعية(٢).

فبوبر يعتبر فيلسوفا ثوريا بتخميناته العلمية الجسورة التي ضمّنها كتابه " منطق الكشف العلمي "، وفيلسوفا إصلاحيا اجتماعيا حذرا، إن لم نقل محافظا في مؤلفاته السياسية " عقم المذهب التاريخي " " المجتمع المفتوح وأعداؤه ". فكتابه المجتمع المفتوح وأعداؤه يعتبر مفتاحا لمحاولته الجمع بين الديمقراطية والعلم، كمسعى لتأطير حداثة عالمنا المعاصر، على أسس إنسانية تتجاوز خطاب الأنوار، ومن المفيد بصفة خاصة أن الدفاع الليبرالي البوبري عن المجتمع الغربي وثيق الصلة بتصوراته الإبستمولوجية(٣).

---

(1).Karl Popper,In Search of A Better World,Routeledge, London and New York, 2000, pp. 206-207.

(2).Karl popper , La théorie de la connaissance et le problème de la paix , in : Toute vie est résolution de problèmes , Actes Sud , 1997 , P P 123-137

(3).Jacques.G. Ruelland : De l'épistémologie à la politique, Philosophie d'aujourd'hui, P U F , 1991.

obeikandl.com

وحداثيـة فكـرة المجتمـع المفتـوح تنبثـق مـن قيمـة يـشترك فيهـا مـع الخطابـات الحداثيـة الأخـرى، وهـي التخلـي عـن كـل اليقينيـات، وتجـاوز مـاهو قـائم، لكنـه لا يقـع في العدميـة النيتـشوية والهيدغريـة، ولا في التوتاليتاريـة الهيغليـة الماركـسية، فهـي تقـترب وتغرف من الروح الكانطية أكثر، فهو يدعو إلى إبستمولوجيا بدون ذات عارفة(١).

إن الحـد الفاصـل بـين قـسمي فلـسفة بـوبر العلـم والـسياسة، يمكـن الوقـوف عليـه، مـن خـلال مقالتـه الـتي نـشرها سـنة ١٩٤٠ بعنـوان : " مـاهو الجـدل ؟" الـتي قـدّم فيهـا ثلاثيتـه الجدليـة الـتي سمّاهـا مـنهج المحاولـة واسـتبعاد الخطـأ، الـتي قـدّم فيهـا جملـة مـن الانتقـادات علـى الجـدل الهيغلـي، مجـردا مـن التغـييرات الـتي أضـافها مـاركس إليـه، انطلاقـا مـن نقـده للمـنهج المـاهوي essentialiste، الـذي يعتمـده هيغـل بقولـه : " كـل معقـول واقعـي، وكـل واقعـي معقـول " فمطابقـة هيغـل بـين الفكـرة والواقـع، وتحطيمـه لمبـدأ عـدم التنـاقض دفـع بـوبر إلى اعتبـار جدلـه جـدلا مغلقـا، واقـترح الاحتفـاظ بفكـرة الجدليـة، مفتوحـة علـى التحـسين والتعـديل والتفنيـد والتكـذيب بواسـطة النقـد والتجربـة، عكـس الحتمية الهيغلية الماركسية المغلقة، حسب المخطط التالي :

P1 ⟶ TT ⟶ E E ⟶ p2

حيث أن:

P1 : ظهور المشكلة ١.

TT: محاولة نظرية لحل المشكلة.

EE : محاولة استبعاد الخطأ من النظرية المحاولة.

P2: مشكلة ٢ متولدة عن هذا الحل.

وهكـذا سـيرورة العلـم، فـالعلم يبـدأ بمـشكلات، وينتهـي إلى مـشكلات (٢)، ولهـذا اعتمـد فكـرة محوريـة في فلـسفته هـي فكـرة التفـتح d'ouverture l'idée، بمعناهـا العلمـي الإبـستمولوجي والـسياسي، كقيمـة علميـة وأخلاقيـة تحكـم مؤسـسات المجتمـع المفتـوح

(1) Karl Popper, La connaissance objective, traduction Française édition Complexe, 3 eme édition, 1985 , P P 119-165.

(2).Karl Popper , Conjuctures and refutations , Harper tarch books. New York & London , 1965 , P P 312-330.

obeikandl.com

وأفراده، وكمبدأ ينظم حياتهم ويوجه أعمالهم، يقول كارل بوبر: " إن المبدأ القائل بأن كل شيء متفتح على النقد. (الذي يكون بموجبه حتى هذا المبدأ في ذاته ليس مستثنى من التفتح على النقد) يقود إلى حل بسيط لمشكلة مصادر المعرفة كما أوضحتها في موضع آخر، هذه المصادر هي كل " المصادر " العقل، الخيال، الملاحظة، وكل مايمكن ويسمح باستعماله، لكن ليس لواحد منها أي سلطة " (١).

ولهذا نجده في أعماله العلمية ينحو منحا تطوريا، ينقد الاتجاهات الوضعانية المعاصرة، ويتفتح على الميتافيزيقا، وفي السياسة يهاجم النزعات الكمالية والجمالية والطوباوية (٢). لأنها حسب رأيه نبوءات زائفة يقدمها أصحابها على أساس أنها علم، وخطأ أصحابها وتبعاته أعظم وأخطر من أخطاء العلماء الذين يتعاملون مع المادة، فإنهم بسعيهم إقامة الجنة على الأرض بنبوءاتهم سيحولون حياة الناس إلى جحيم لا يطاق، وشواهد التاريخ على ذلك قائمة كالنازية والفاشية والشيوعية والستالينية. فالحداثة عند بوبر ليست خطابا مهولا ومهوسا يلعن الواقع والعالم أو مطالبة بتغييره كلية أو الفرار منه، إنها عملية تعهد للمعقولية في المسيرة العلمية والسياسية والاجتماعية، وهكذا نراه ينقد جنبا إلى جنب دعاة الأنساق الدوغماتية المغلقة في العلم كالتجريبيين المناطقة، أو المتعالمون المزيفون وأصحاب النبوءات التاريخيانية كأفلاطون وهيغل والرومنسيون كنيتشه وهيدغر، يقول بوبر: " لأن قلت في هذا الكتاب كلمات قاسية حول بعض العظماء من قادة الفكر البشري، فدافعي إلى ذلك، كما أتمنى، ليس الحط من أقدارهم، إنه ينبعث من قناعتي أننا إذا أردنا لحضارتنا البقاء، يجب علينا أن نتخلى عن عادة الإذعان للرجال العظماء، لأن الرجال العظماء يمكن أن يرتكبوا أخطاء فادحة "(٣). ومن جملة هؤلاء العظماء أفلاطون وهيغل وماركس، الذين اعتبرهم أعداء الديمقراطية التي يعتبرها كتشرشل النظام السياسي الأقل سوءا، لأنها تشكل في نسق تفكيره السياسي التطوري نظام المجتمع

---

(1).Ibid , P P 4-31

(2).Karl Popper. The open society and its enemies , Volume 1 . Routledge & Kegan , 1966 , P P 157-168.

(3).Ibid . P P 169-201

المفتوح، المنبثق عن النظام القبلي المؤسس على النظرية العضوية البيولوجية للدولة كما صاغها أفلاطون، أول منظر اجتماعي للفكر السياسي التوتاليتاري، الذي سار على نهجه هيغل وماركس، باعتبارهم التاريخ علما وحتميات صارمة، واعتقادا منهم أن بعبقرياتهم ونبوءاتهم يمكنهم تأويله وتفسيره، سواء بالاستناد على مفهوم العناية الإلهية أو تحقيق المطلق في التاريخ كما هو الشأن عند هيغل، أو إحداث ثورة عمالية بالنسبة لماركس، وتأتي فلسفة كارل بوبر على نقيض هذه الفلسفات، فلسفة واقعية حذرة، تحذر من التغيير الثوري العنيف.

لهذا ساهم في النقاش حول علومية scientificité العلوم الاجتماعية، وحذّر من المزاعم التي تدعي تماثلية بنيوية similarité structurelle ما بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الاجتماعية، وبالتالي فان القيام بتعميمات وتنبؤات في العلوم الاجتماعية، كما هو الشأن في العلوم الطبيعية، مبني على فهم خاطئ للظاهرة الاجتماعية، وتفردها وتميزها عن الظاهرة الطبيعية، يقول بوبر: " لقد أقنعتني دراسة حذرة لهذه المشكلة، أن تنبؤات من هذا النوع تتجاوز إمكانيات المنهج العلمي، المستقبل تابع لنا، ونحن من جهتنا لا نتبع أيّ ضرورة تاريخية، رغم التأكيدات المعاكسة لبعض المذاهب الاجتماعية المنتشرة الآن"(١).

إن أكبر خصم في العمق لبوبر هو القرن التاسع عشر في مجمله، القرن الرومنسي واللاعقلاني، الذي اتخذ عبادة الأمة شعارا له، القرن الذي يستمد أصالته الفكرية في زعمه اكتشاف التاريخ، أي زعمه أيضا أنه فهم أيضا، ليس فقط الحياة الاجتماعية، لكن النفسية والأخلاقية، إنها تتغير تاريخيا، وأن التاريخ قوة تتجه نحو هدف خاص به، يوظف فيه الأفراد كوسائل، وأن المستقبل الموعود للإنسانية هو مستقبل الانعتاق الكلي، الذي يفترض تجاوزا راديكاليا للقيم الخاصة بمجتمع ديمقراطي وعقلاني في حالة أزمة وتوتر طبعا.

ولفهم الستالينية، يكفي قراءة كتاب " الصفر واللانهاية " لكويستلر، لرؤية كيف أن الماركسيين آمنوا أن كل أخلاق ذاتية ستزول، مادام قد بين العلم أن التاريخ

---

(1).Ibid , P P 3-4.

سيذيب الأفراد داخل المجموع، ولفهم الفاشيات، يجب تذكر كم كانوا كثيرين المذهبيون في نهاية القرن التاسع عشر من نيتشه إلى شبنغلر الذين تنبؤوا بنهاية عالم منحط وظهور إنسان جديد، منبعث متخلص من أخلاق بائدة.وضد أوهام القرن التاسع عشر، يقوم بوبر بعودة واعية إلى فلسفة الأنوار، العقلانية، الأخلاقية، الكونية، مؤمنا بتقدم لا يستند على فكرة المصير le destin (التي تشكل محور اهتمام هيغل، نتشه، هيدغر، ماركس) لكنه يستند على جهود البشر.

إن الاتجاهات الرومنسية، بحث عن أصلها بوبر في ماضي الفلسفة. إنها مذاهب تاريخانية، تلك المذاهب التي تقول أن التغير التاريخي يتم في اتجاه معيّن، وأنه يتعلق بعودة أبدية دورية، تركب مع حركة انحطاط في داخل الدورة، كما يعتقد بذلك الهندوس والإغريق. أو على العكس، تعاقب نحو تعظيم وتقديس ديني، كما آمن بذلك المؤمنون بعودة المسيح، والتعظيم الأول من هذا النوع كان يهوديا، لكنهم الفلاسفة الإغريق الكبار حسب بوبر هم الذين منحوا أول مثال منظّر للتاريخانية.فمثل أفلاطون وأشباحها هي تبرير فلسفي استعمله لمعالجة التوتر الحضاري tension civilisationelle والتوعك malaise الاجتماعي السياسي الذي عاصره بالاستناد على نظرية الثبات، ومحاربته للتغيّر، باعتباره أن التغير يتجه دوما نحو تدهور للمثال الأصلي الأول، وهكذا، فالمجتمع القبلي يقابل في عالم المثل، إن أي تغيير له يعتبر ابتعاد عن الأصل عن المثال أي تدهورا. وهكذا فتحليل هيغل وماركس وشبنغلر وتوينبي ليس تحليلا علميا : " دور العلوم هو دائما التنبؤ أو إعطاء تنبؤات يومية انطلاقا من أسس موثوقة، أما دور العلوم الاجتماعية، فهو إنتاج تنبؤات تاريخية مؤسسة على قوانين تتبجح أنها استخرجتها "(١).

وهكذا ينكر بوبر إمكانية أن تكون هناك قوانين عندما يتعلق الأمر بمسار فريد مثلما هو الحال بالنسبة لتاريخ الإنسانية (٢) ويبقى مصرا على القول أن الكون مفتوح وأن المستقبل مفتوح أيضا (٣)، إن الأفكار الجديدة التي طورها بوبر في سنوات

---

(1).Ibid . P P
(2). Ibid . introduction.
(3). Karl Popper . L'univers irrésolu , et l'avenirs est ouvert

١٩٦٠ -١٩٧٠ تثبت أصالة الابستمولوجيا التطورية البوبرية المتفتحة التي لم تكن ممكنة فقط مع القابلية للتكذيب، إن الجديد في أفكار بوبر المتأخرة، هو الاهتمام الذي منحه للبيولوجيا وفروعها التابعة العلمية، ورفضه عزل نفسه مثل باحثين آخرين (التجريبيون المناطقة على سبيل المثال) في ميدان الفيزياء النظرية باعتبارها نموذجا وحيدا للعلومية scientificité، وأهمية فكرة المجتمع المفتوح، كفكرة حداثية تؤيدها مجريات الأحداث المعاصرة التي واكبتها ورافقتها، فالكسوف السياسي للشيوعية قاد إلى انقلاب على المستوى الثقافي، الذي تأثر بالأفكار التي طوّرها بوبر، في وقت لم يكن أحد بتصور وقتها النتيجة التي آلت إليها الشيوعية اليوم، ومهما كانت انتقادات بوبر قاسية ضد التاريخانية، فإنه لم يمنع شيئا واحدا إذ يعترف أنه يلبي حاجة لا يمكن حذفها، وهو صياغة تأويل عام للتاريخ، الذي يطبع المراحل الكبرى ويستخرج منها المعنى، ويحدد مرحلة في علاقتها بماضي الإنسانية، ويعطي بوبر المثال بنفسه،ويقترح تأويله الخاص المعروف جيّدا : انتقال الإنسانية من المجتمع القبلي المغلق الثباتي، الذي تهيمن عليه ذهنية سحرية إلى المجتمع المفتوح الفرداني، التقدمي، المتميز بالروح النقدي. الذي يواجه فيه أفراده مصائرهم بأنفسهم، بمسؤولية وحرية(١). وهذا الانتقال الذي بدأه اليونان في القرن الخامس الميلادي، الذي سبّبه تطور التجارة والذي سرّع وتيرته الغرب الحديث، هو انتقال ايجابي.فنحن هنا إزاء نظرية تفاؤلية للتقدم، تتعارض بصراحة مع كل النظريات التي تنظر للانحطاط الكثيرة الانتشار هذه الأيام(٢)، سواء كانت من إلهام نتشوي، أو هيدغري، أو مسيحي، أو ذات طبيعة إثنية أو إيكولوجية.

ففكرة المجتمع المفتوح فكرة تعارض الذين يحنون للمجتمعات التقليدية (أفلاطون مجتمع القبيلة، هيغل سيطرة الجنس الآري، ماركس المشاعية البدائية)، ويعارض الأنبياء المزيفين لهذا القرن الذين يحلمون بمجتمع متناغم وشفاف هم

---

(1).Karl Popper . The open society and its enemies , Op Cit , P P 173-182

(٢) كما يشهد على ذلك إغراق الناشرين العرب للسوق بالمؤلفات التي تتجه في هذا المعنى، كشبنغلر وفوكوياما هذه الأيام، والكتب التي تتنبأ دينيا بانهيار العالم وانحطاطه.

مهندسوه. وبدفاعه عن المجتمع المفتوح، فإن بوبر يقول على العكس، يجب علينا أن نتعلم العيش في اللااكتمال، وعدم الرضا، والأزمة، وما يعترف به بالفعل، هو أن المجتمع المفتوح يخلق في نفس الوقت، التقدم والتوعك، ويعزل الناس، ويحملهم ثقل مسؤوليات جديدة، وعند الأزمة والتوعك يحلم بعض أفراده بالعودة إلى البراءة المفقودة، في المجتمع المغلق، ويسعون لتخطيط مستقبل لمجتمعات تجد فيه الطبيعة الإنسانية كمالها. لكن هذه الأحلام خطيرة جدا، ولن تؤدي في غالب الأحيان إلا إلى أشكال من البربرية.وهي معاكسة للتوجه الإنساني الذي هو بالنتيجة العقلانية والمعرفة، وضياع الوعي البريء.فيجب القبول إذن أن نخوض بحثا ممتدا لا منتهيا بالنسبة للمعرفة أو بالنسبة للتقدم الاجتماعي أيضا، والاستحقاق الهام لفلسفة بوبر في التاريخ هو أن نتخلى عن الحلم بالكمال.(١)

ثانيًا: المجتمع المفتوح وقيمه :

مفهوم المجتمع المفتوح كمقابل للمجتمع المغلق، استعاره بوبر من الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون واستعمله في كتابه " المجتمع المفتوح وأعداؤه " بمعنى آخر، وهو الكتاب الذي اتخذ قرار كتابته في اليوم الذي تلقى فيه خبر دخول جيوش "هتلر" إلى النمسا ؛ يقول عنه بوبر : " إنه دفاع عن الديمقراطية، في مرحلة لم يعد لها فيها أنصار كثيرون مقتنعون بها، كان كل الذين يكتبون تقريبا، أو الذين كنت على اتصال بهم، يتنبؤون بنهاية الديمقراطية، وانتصار فاشية اليمين أو انتصار فاشية اليسار، ولم يكن على شفاه الكب إلا نقاط ضعف الديمقراطية "(٢).

وليس مفهوم المجتمع المفتوح عند بوبر شكلا لنظام سياسي أو لحكومة، بقدر ماهو سكل للتعايش الانساني، الذي تكون فيه حرية الأفراد واللاعنف وحماية الأقليات، وحماية الضعفاء، هي قيم أساسية (٣)، تلك القيم التي يعتبرها بوبر أصبحت تحصيل حاصل في المجتمعات الغربية.

---

(1).Karl Popper , The open society and its enemies , Op Cit , P P 167-168

(2).- Karl Popper, La quête inachevée, traduction Française Calman- Levy , 1981 , P P 155-164.
Et surtout :
Karl Popper, l' avenir est ouvert , Symposium de Vienne , 1983 , P 165.

(3).Karl Popper , La leçon de ce siècle , édition 10/18 , France , 1992 , P P 95-124

وعن فكرة المجتمع المفتوح، وقيمتها الأساسية الحرية، يعتبر بوبر أن مسارها طويل، إذ وجدت فكرة الحرية لأول مرة بأوربا لدى هوميروس، عندما يتحدث هكتور مع أندروماك عن اليوم الذي ستسقط فيه طروادة وعن اليوم الذي يفقد فيه الطرواديون حريتهم، يتحدث عن " يوم الحرية " وعن " يوم العبودية " (١).

كانت كتب هوميروس أول الكتب بأوربا، لقد كتبت لأول مرة سنة ٥٥٠ ق م بأثينا، ووزعت في نسخ،استجلب لها بيزيستراس عبيدا متعلمين، اشتراهم وكلفهم بنسخ ملحمتي هوميروس " الأوديسا والإلياذة " في لفائف من البردي، الذي اشتراه من مصر، مدخلا بذلك المادة الضرورية للكتابة، وبسرعة فائقة نشرت كتب أخرى بدورها، يقول بوبر: " لا يجب أن ننسى أبدا أنه بدون سوق للكتاب لا يمكن أن يكون هناك نشر"(٢)، وهكذا تطورت الآداب في أثينا، وتبعتها المدن الأخرى، وغدت أثينا ديمقراطية، بعدما أصبحت ملاحم هوميروس إنجيل وأبجدية الإغريق، تعلمت أثينا القراءة، ونقلت ونشرت كتبا، ومباشرة من بعد أخذت أثينا قيادة القبائل الإغريقية في حرب التحرير ضد الفرس، وهكذا باختصار كان ميلاد فكرة الحرية بأوربا والحضارة الأوربية حسب بوبر.

ويحس نقدي علمي ثاقب لبنية المجتمع الإغريقي القديم الذي تمثل صورتيه ؛ المغلقة والمفتوحة، قبيلتين هما إسبرطة وأثينا، فالمعجزة اليونانية، بدأت في القرن السادس ق م، وتبلورت وتجسدت في نظام حكم أثينا الديمقراطي سياسيا وثقافيا وعلميا، على يد شلّة يسميهم كارل بوبر" الجيل العظيم "، الذي قطع حبل الوصال بالمجتمع المغلق، وهو جيل رواده لا يجمعهم إطار مرجعي واحد، ولا مشرب ثقافي واحد، لكنهم يؤمنون جميعا بالعقل الانساني ومحدوديته وأهميته، ويحتكمون إليه في التقريب بين خلافاتهم، لأنهم يؤمنون أنهم نتائج المواجهات والمناقشات، حتى ولو لم تكن مثمرة فيما بينهم، يقول كارل بوبر: " ماأريد قوله، يمكن تلخيصه في الأطروحة

---

(1).Karl Popper , l' avenir est ouvert , O p cit , P P 166-167.
(2).Ibid , P P 167-168.

التي تقول أن حضارتنا الغربية هي نتيجة الصراع أو المواجهة بين الثقافات المختلفة، وبالنتيجة، نتيجة للمواجهة بين الأطر المرجعية "(١).

وبوبر يذهب أبعد من التحليل الغربي – مركزي occidentocentrisme، وإن قال بالمعجزة اليونانية وشروط انبثاقها الداخلية، ويضيف إليها عوامل خارجية، ثقافية حضارية، كانت عاملا أساسيا فيها : "هناك تسليم واسع بأن حضارتنا التي تحت أحسن مظاهرها التي يمكن أن توصف (...) أنها اكتسبت كثيرا من السمات، مثل الأبجدية والمسيحية، ليس فقط من خلال الصراعات مابين الرومان والإغريق، لكن أيضا من خلال المواجهات مع اليهود والفينيقيين وحضارات أخرى في الشرق الأوسط، وأيضا من خلال الصراعات الناجمة عن الغزوات الجرمانية والإسلامية"(٢).

وبوبر يؤكد أن المعجزة الإغريقية مهما استطعنا تفسيرها قد كانت ناجمة عن صراع الثقافات، فالفلاسفة الأوائل في المستعمرات الأيونية بآسيا الصغرى وجنوب إيطاليا، كانت في مواجهة مع الحضارات الكبرى الشرقية، ودخلت معها في صراعات، سواء في الغرب، أين كانوا يلتقون بالصقليين وبالقرطاجيين والإيطاليين، مثل توسكان، يقول بوبر : " إن أثر الصراع الثقافي على الفلسفة ينبع من الشهادات المتوفرة لدينا عن طاليس، وهو واضح في حالة هيرقليطس، لكن الطريقة التي قاد بها الناس إلى التفكير بطريقة نقدية ظهرت بقوة في زينوفان "(٣).

وهكذا فالدور الذي لعبه صراع الثقافات في ميلاد العلم الإغريقي، الرياضيات والفلك، معروف جيدا ويمكن حتى تخصيص الطريقة التي بموجبها كانت الصراعات المختلفة خصبة. يعتبر بوبر أن أفكار الغربيين عن الحرية والديمقراطية والتسامح، وأيضا أفكار المعرفة والعلم والعقلانية، تعود جميعا إلى هذه البدايات. ويرى أن فكرة العقلانية هي أهم فكرة من ضمن هذه الأفكار جميعا. وعملية الصراع الثقافي، تساعد عند تطبيقها على مشكلة فهم عالمنا، وهكذا ميلاد العلم، والعقلانية ذات الدعامتين المتساويتين تقريبا، الأولى هي : الإبداع الشعري، وهي واقع سرد قصص أو صنع

(1)Karl Popper in :Karl Popper , et la science d'aujourd'hui , Op Cit,P 18
(2)Ibid , P P 18-19
(3).Ibid , P P 20-21

أساطير : اختراع حكايات تفسر العالم، هذه من أجل البداية، التي تبقى دائما ربما مشركة وثنية، يحس الناس أنهم في قبضة قوى مجهولة، ويحاولون فهم وتفسير العالم، والحياة الانسانية، والموت، باختلاقهم حكايات أو أساطير حول هذه القوى(١).

إن هذه الدعامة الأولى التي يمكن أن توجد ربما كذلك أقدم من اللغة الإنسانية ذاتها، هي مهمة، وتبدو كونية : كل القبائل، كل الشعوب، لها حكايات تفسيرية هي في غالب الأحيان في صورة حكايات خيالية، ويبدو حسب بوبر أن اختلاف الحكايات التفسيرية هي واحدة من الوظائف الأساسية للغة الإنسانية.

الدعامة الثانية ذات تاريخ حديث نسبيا، ويبدو أنها إغريقية على وجه مخصوص، وأنها ظهرت مع تأسيس الكتابة باليونان، لقد وبدت مع أنكسيمندريس، ثاني فيلسوف أيوني، إنها اختراع النقد، النقاش النقدي للأساطير المختلفة التفسيرية، بغية تحسينها عن وعي. وأول أسطورة مؤسسة، كانت أسطورة هوزيود " ميلاد الآلهة "، التي يعتبرها بوبر قصة متوحشة للأصل البشري، وأعمال وشرور الآلهة، وماء طاليس و قوله :" إن الأرض فوق الماء، تسبح فوقه مثل السفينة "، فنقده تلميذه وصديقه أنكسيمندريس " لا يوجد شيء يحمل الأرض في الهواء وعوض هذا فالأرض تبقى ساكنة " إن نقد أنكسيمندريس لطاليس، وبناءه لأسطورة جديدة، لم يكن ليقود لشيء، لولم يستمر في هذا التقليد، فقد كان لكل جيل أسطورته، وهكذا يعتبر طاليس وأنكسيمندريس أول مؤسسين لتقليد مدرسي جديد :التقليد النقدي la tradition critique.

وهكذا فالمجتمع المفتوح مشروع تطوري، الثابت فيه قيمة الحرية والإيمان بالعقل الإنساني، مجتمع تغذيه وتنميه عقول واعية في المجتمع المتعدد المتنوع المختلف المشارب والآراء، الذي يسعى أفراد متميزون فيه في كل جيل وأمة، يسميهم بوبر الجيل العظيم، لازدهاره كما هو الشأن بجيل طاليس ، أنكسمندريس وزينوفان وسقراط وديمقريطس وبروتاغوراس وثيوسيديس وبركليس وهيرودوتس وهوزيود، أي التقاء العلم والفلسفة والفن والسياسة في بؤرة متوترة دائمة من الصراع الثقافي العلمي،

---

(1).Ibid , P P 21-22

والاجتماعي السياسي، ومحاولة تسيير هذا الصراع وإدارته على قاعدة المعقولية، التي تعتمد مدرسة النقاش النقدي البناء، من أمثال ديمقريطس الذي يقول : "لأن أجد تفسيرا سببيا واحدا، أفضل عندي من أن أكون ملكا على فارس "(١)، فنحن مدينون له بملاحظة العالم الحقيقي، والإنسان المتفتح، إذ يقول : " كل واحد من الناس عالم صغير في نفسه، يجب علينا مساعدة المظلومين، لنكون أخيارا علينا ألا نظلم وألا نريد أن نظلم، الأعمال الجميلة لا الأقوال الجميلة هي التي تؤخذ بعين الاعتبار، فقر الديمقراطية أفضل من رفاهية الأرستقراطية أو الملكية، مثلما أن الحرية أفضل من العبودية، الرجل الحكيم ينتمي إلى كل البلدان، العالم كله سكن لنفسه العظيمة " (٢).

وسقراط الفيلسوف المتواضع، مؤسس الأخلاق والعقلانية، لقوله : " أعرف نفسك بنفسك " وأنه لا يعرف شيئا، قد حارب الرضا الذاتي والغرور العلمي، والتهور الأخلاقي، وألح أن الإنسان ليس مجرد جسد من لحم، فالإنسان توجد فيه شرارة إلهية هي عقله.

وبركليس، السياسي المتفتح، يقول : " نظامنا السياسي لا ينافس الدساتير الموجودة بالقوة في أي مكان آخر، نحن لا نحتذي بجيراننا، لكن نحاول أن نكون مثالا يحتذى، إدارتنا ترعى الأقلية، ولهذا سميت ديمقراطية، القوانين تساوي بين الجميع في النزاعات الخاصة، لكننا لا نتجاهل المطالبة بالامتياز، عندما يميز المواطن بنفسه في خدمة الدولة، أفضل من غيره، ليس كموضوع حظوة، لكن كمكافأة للاستحقاق. الفقر ليس عائقا (...) الحرية التي ننعم بها تمتد إلى حياتنا العادية ، نحن لا نرتاب في بعضنا البعض، ولا نتضايق من جارنا إن هو اختار طريقا خاصا به، لكن هذه الحرية لا تجعلنا خارجين عن سيطرة القانون ". (٣)

إذن شروط انبثاق المجتمع المفتوح وازدهاره، تتمثل في إقامة مؤسسات علمية وثقافية واجتماعية وسياسية، تعتمد على قاعدة النقاش النقدي، التي يعمل بها علماء وفلاسفة وفنانون وساسة مجتمعين، وهذا التقليد روعي بإحكام في مسار تطور

---

(1).Karl Popper , The open society and its enemies , Op Cit , P P 185-186
(2).Ibid , P P 186-187
(3).Ibid , P 186

الحضارة الغربية (ماعدا فترة العصور الوسطى الأوربية)، فالديمقراطيات الغربية الحديثة عرفت أمثال هؤلاء العظماء، وكان لها جيلها العظيم أيضا، كغاليليو وكبلر ونيوتن وأينشتاين وديكارت ولايبنيتز ولوك ولوثر وكانط وجونستبوارت ميل وموليير وشكسبير، وقادة سياسيون ديمقراطيون، كجورج واشنطن وتشرشل وديغول.

ولطالما عانى بوبر من تهمة الليبرالية والوضعية، خاصة من لدن جماعة فرانكفورت، الذين تعاملوا مع فكره كما لو كان امتدادا لفكر أعضاء " حلقة فيينا "، نموذجا للفكر الليبيرالي، ونقاشاته الحادة مع أورنو، التي قسمت الحاضرين في "توبنجن " إلى قسمين، إذ هاجم بوبر أدورنو باعتباره حاول استغلال هيغل وإعادة بعث أفكاره، التي يعتبرها بوبر أفكارا عنصرية، معادية للحرية وللانسانية، وأدورنو يتهم بوبر أنه يحاول بفلسفته الليبرالية المحافظة، الدفاع عن النظام الرأسمالي القائم، وأن منهجه الإصلاحي التدريجي، يخدم هذا الهدف، ورد عليه بوبر أن المجتمع المفتوح ليس فكرة ليبرالية، فهو مفتوح على التطور، وعلى الإصلاح التدريجي، والشيء الوحيد الذي يتمسك به بوبر كقيمة ثابتة لا تتغير في أسس هذا المجتمع هما فكرتان، فكرة الحرية وفكرة الديمقراطية، اللتين رأى أن بقاءهما وازدهارهما لا يكون ممكنا إلا في مجتمع مفتوح ديمقراطي

وفي مؤتمر توبنجن (١٩٦١) اتهم Albert Hans هابرماس وزملاءه من أعضاء مدرسة فرانكفورت، بجهله أن قانون حكم القيمة لا يمكن اشتقاقه من أحكام الواقع.

وحسب تيديسكو، فان التصادم بين بوبر ومدرسة فرانكفورت، ناجم عن الاختلاف في تصور الوضع الإيديولوجي ، بالفعل، في الوقت الذي يعتق أدورنو وأتباعه أن التعرف على المشاكل وحلّها، يتطلب تبصرا أو لنقل تأويلا للمسار الحاضر للتاريخ، فإن مؤلف المجتمع المفتوح يعتبر هذا وهما، بل ضارا، كل تأكيد على أن الإمساك باتجاه ثابت للأفعال الإنسانية.

ويبقى مصرًا على فكرة المجتمع المفتوح كفكرة مجردة، يفكر حسب قوله أعضاؤه بعقولهم لا بدمائهم إشارة منه للنظم القائمة على القبيلة وتوابعها، الأمة والقومية .... إلخ(١).

* * * * *

(1).See : Roberta Corvi , An introduction to the thought of Karl Popper , Routledge & Kegan , 1997 , P 147.

obeikandl.com